خَاتِمَة سَنِّيَّة في التَّصَوُّف والصُّوفِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد إمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإليك أيها الأخ ما وعدتك به من حديث عن الطريق، يكشف لك حقيقتها وأهدافها، وكيف نشأت ومتى عُرِفَت، كما يُبَين لك وسائلُها، لتكون منها على بيِّنة تعصِمُك من التأثر بإرجاف المُرجِفين من خُصومِها الذين هاجموها وعابوها من غير دراسة لها، ولا معرفة بها. أما:

طريق الصوفية

التي نتشرف بالانتساب إليها، فهي: رياضة رُوحية دينية، الغرض منها تربية النفس وتهذيبها، وتعويدها مكارم الأخلاق، وشريف الأحاسيس، وحفزها إلى التأسِّي في الظاهِر والباطن بسلف الأمَّة وصالحيها، أهل القرون المشهود لهم بالخير، وأما:

نشأة الطريق وأسباب ظهورها

فإن المسلمين جميعا في صدر الإسلام كانوا على أحسن الأحوال وأكملها، وكانت الأنوار المحمدية لا تزال تَجِد طريقها مُعَبَّدا إلي القلوب فتُصلِحُها وتصقلها، إذ لم يكن ثَمَّة تيَّارات قويَّة تُعارضُها، وتحُدُّ من تأثيرها، ولذلك لم يبرز بين المسلمين إذ ذاك منهج خاص في التعبُد والاتجاه إلي الله، ولكن بعد أن فُتِحَت الدنيا على المسلمين وكثُرَت في الأيدي الأموال، تنبَّهَت غَرَائزُ الحرص والأثَرَةِ والحسد والضغينة وأشباهها في النفوس فأحدثت أثرها الضَّار في معنويات الإسلام ومُثُلِه العُليا، وأتت على الموازين الخُلُقيَّة في نفوس الكثيرين.

هُنالِكَ قامت طَائفة من خيار الأُمَّة الذين كان لهم من قوة الإيمان ما مكنهم من الصُّمود أمام تلك التَّيَّارات الجارفة، ووجَّهوا مجهودهم إلي إحياء ما كان عليه الرسول ﷺ من أحوال شريفة سنيّة، وأخلاق كريمة

مرضيَّة، ولم يكن هَدَفهم إحياء رُسُوم ولا رِوايـة أقـوال، إنمـا كـان إحيـاء تخلُّق وتأسَّ وإتباع، وأخذاً للنفوس بِـصنوف المجاهـدات التـي تُحَقِـق لهـا الصفاء، وتَرقِّي بها إلي مقَام التَّوحِيد الحَـقْ، والمعرفـة الذَّوقيَّـة بـالله عـزَّ وجلَّ، ثُمَّ العَمَل علـى نـشر الفِكْـرة، واجتِـذَاب الـصَّالِحِينَ إليهـا، وأخْـذِهِم بالوَسَائِل التي تسمُو بأرواحِهم، إلي الكمـال المنـشود، وقـد عُـرِفَ هـؤلاء الأخيار فيما بعد باسم "الـصُّوفيَّة" وإذ كـان لابـد لهـؤلاء – وقـد أصـبحوا أصحاب فكرة، ودُعاة مبدأ – أن تكـون لهُـم وسَـائِلَهُم وأسـاليبُهُم الخَاصَّـة بِهِم في التَّربية، فَقَد اخْتَطُّوا لأنْفُسِهِم خُطَطاً، ووَضَـعُوا قواعِـد عُرِفَـتْ فيمـا بعد باسم "أُصُول الطَّرِيق وآدابِه" وإليـك أيَّهـا الأخ مـا قالـه العلاَّمَـة ابـن خلدون في مقدمة تاريخه عـن التَّـصوُّف، وكلمـة التَّـاريخ فـي الموضـوع فصلُ الخِطَاب، قال رَحِمَهُ الله:

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملـة، وأصـله أن طريقـة هـؤلاء القوم لم تزل عند سـلف الأمـة وكبارهـا مـن الـصحابة والتـابعين ومـن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصـلها العُكـوف علـى العبـادة ، والانقطـاع إلي الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتهـا ، والزهـد فيمـا يُقبـل عليه الجمهور من لـذَّة ومـال وجـاه ، وكـان ذلـك عامـا فـي الـصحابة والسَّلف، فلمَّا فَشَا الإقبال على الدنيا في القـرن الثـاني ومـا بعـده، وجـنح الناس إلي مخالطة الدنيا اخـتُصَّ المقبلـون علـى العبـادة باسـم الـصُّوفيَّة والمتصوفة، فلمَّا اخـتُصَّ هـؤلاء بمـذهب الزُّهـد، والانفـراد عـن الخلـق، والإقبال على العبادة، اختُصُّوا بمآخذ مدركة لهـم نتيجـة لِمُجَاهَـداتِهم، وهـي مآخِذ لا يشاركهم فيها إلا القليل مـن النـاس، لأن الغفلـة عـن هـذا كأنَّهـا شاملة، إذ غاية أهل العبـادات أنهـم يـأتون بالطاعـات مخلَّـصَة مـن نظـر الفقه في الإجـزاء والامتثـال، أمَّـا هـؤلاء فـإنهم يبحثـون عـن نتائجهـا بالأذواق والمواجد ليطَّلِعوا علي أنها خالصة مـن التقـصير أولاً، وبِـذَا يُعْلَـمُ أن أصل طريقتهم كلها مُحاسـبة الـنَّفس علـى الأفعـال والتُّـروك، والكـلام علي الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات، ثـم لهـم مـع ذلـك آداب

مخصوصة بهم، واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المُتعَارفة، فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا علي التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه، فلهذا اختُصَ هؤلاء بهذا النوع من العِلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه، وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفُتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات، وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام علي الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية التَّرقِّي فيها من ذوق إلي ذوق ، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك (انتهى ببعض تصرف).

ومنه يتبين ما يأتي:

أولاً: أن طَّريق الصُّوفيَّة لم تَكُنْ بِدْعاً في الدِّين ولا دَخِيلَةٌ عليه كما يَهْرِفُ بذلك الأفَّاكُون الذين لا يستحيون، وأن الحادِثَ فيهَا إنما هو التسمية فقط.

ثانيا: أنَّ هدف الصُّوفيَّة ممَّا أخذوا به أنفسهم إنما هو القيام بواجبات العبُوديَّة، وحقُوق الرُّبُوبيَّة علي الوجه الأكْمَل ، توصُّلاً إلي التحقُّق بمقام الإحسان الذي يقول فيه الرسول ﷺ "الإحسانُ أن تَعْبُد الله كأنَّك تَرَاه فَإن لم تَكُنْ تَرَاه فَإنَّه يَراك" وإنَّه لأكرمُ هَدَفْ.

ثالثا: أنَّهُم لم يخْرُجوا في جِهَادِهم وما إختَطُّوه لأنفسهم عن الشريعة، وأنهم إنَّما صدَروا في ذلك كله عن المأثور عن الرسول قولاً وفعلاً وحالاً، وما نُقِل عن الصَّحابة والسَّلَف رِضْوانُ الله عليهم من ألوان المُجَاهَدات وصُنُوف القُرُبَات التي إلتزموها في حياتهم، ودُوِّنَتْ عنهم بعد وفاتهم، وإليك من كلام الصُّوفيَّة في:

تحديد معني التصوُّف

ما يَزيدُكَ يَقِيناً بِما ذَكَرْتُ لـك .فَمـن ذلـك قـول شـيخ مـشايخُنا الـدَّرْدِير: "التَّـصَوُّفْ هُـوَ الأخْـذُ بـالأحْوَط مـن المـأثورات، واجتنَـاب المنْهِيَّـات، والاقتصار علـي الـضَّرُري مـن المُبَاحَـات"ويُقَـال" هُـوَ حفْـظُ الحَـوَاسْ، ومُرَاعاةُ الأنْفَاسْ" أي: صِيَانَتُهَا عَـن أن تُـصْرَفَ فـي غَيْـر خَيـر ، وقـول الشيخ قاسم الخاني": التَّـصَوُّفْ هُـوَ الوُقُـوفُ مـع الآداب الـشَّرْعِيَّة ظـاهراً وباطِنَاً "وقولً الجُرَيري:"هُوَ الدُّخُلُ في كل خُلُـقٍ سّـنِي، والخُـرُوج عـن كُـل خُلُق دَنيّ، "وقَولُ الغَزَالي "التَّصَوُّف تَجْرِيـدُ القَلْـبِ لله تَعَـالي ، واحتِقَـارُ مَـا سِوَاهُ .أي : اعتقاد أنَّه لا يضُرَّ ولا ينفع، ومن كلام ابن عَجِيبَة الحَسَنِي:

"وأُصُول التَّصَوُّف خَمْسَة: تقـوى الله فـي الـسِّر والعَلانِيـة، وإتبـاع الـسُنَّة في الأقوال والأفعال، والإعراضُ عن الخلـقِ فـي الإقبـال والإدبـار، والرِّضَـا عن الله في القليل والكثيـر، والرُّجُـوع إلـي الله فـي الـسَّرَّاءِ والـضَّرَّاء"، رَضِيَ اللهُ عنهُم أجمعين.

وغيرُ ذلك في بيان حَقِيقَة التّصَوُّف أقوالٌ كثيـرة، ولكنهـا كُلُّهـا تَرْجِـع إلـي شيء واحد وهو: صِدْقُ المُعَامَلَة مـع الله تَعَـالي بِحُـسْنِ العُبُودِيَّـة، والتـزام الآداب الشَّرْعِيَّة، وأنَّه لا شيء غَيرَ ذلـك يُحَقِـقْ لِلـسَّائِر هَدَفَـهُ ويَـصِلُ بِـه إلي غَرَضِه ثُمَّ إليكَ لوْنَاً آخر مِنْ:

تَعْظِيم الصُّوفِيَّة للشَرِيعَة

لِتَعْلَمَ مَبْلَغ تَعَسُّف المُتَحَامِلين عَلَيهِم، فمن ذلك مـا نُقـل عـن شـيخ الطائفـة الجُنَيد بن محمد حيث يقول: "الطُّرق كُلُّهـا مَـسْدُودَة علـي الخلـق إلا علـي من إقْتَفي أثَرَ الرَّسُول ﷺ " كما يقول أيضاً: "إذا رأيـتم الرَّجُـل يمـشي علـي الماء أو يطير في الهـواء فـلا تلتفتـوا إليـه، فـإن الـشيطان يطيـر مـن المشرق إلي المغـرب ويمـشى علـي المـاء، ولكـن انظـروا فـي اتِّباعِـه الكتاب والسُنَّة ، فإنَّ الشيطان لا يقدر علي ذلك أبداً.

وقول ابن عطاء: "مـن ألـزَمَ نَفْـسَه آداب الـشَّريعة، نَـوَّر الله قلبَـه بِنُـور المعْرِفَة، ولا مقَام أشْرَف من مقام مُتَابَعَـة الحبيـب ﷺ فـي أوامـره وأفعالـه

وأخلاقه، فَمَن زَعم أنَّ له مع الله حالاً يُخْرِجُهُ عن حد العِلم الشَّرعي فهو ضال عن الحق".

وقول السَّيد إبراهيم الدُّسُوقِيَّ:"طَرِيقُنَا هذا مضْبُوط بالكتاب والسُّنَّة، فَمَنْ أحدَثَ فيه ما ليس في الكتاب والسنَّة فَلَيسَ منَّا ولا من إخْوانِنَا ونَحْنُ بَرِيئُونَ منه في الدُّنْيا والآخرة، ولو انتَسَبَ إليها بِدعْواهُ".

هذه بعض أقوال السَّادة الصَّوفِيَّة حول تعظيم الشَّريعة، وغير ذلك كثيرٌ جداً يَطُولُ بِنا الحَدِيثُ لو ذهبنا نسْرُدُه، ومن ثَمَّ نكتفي بما ذُكِرَ ففيه المَقْنع لِمَن أراد أن يقتنع،علي أنَّ الإنصاف يقتضينا أن نقول إنَّ أولَئِكُم الذين يزعمون الانتساب إلي الطُّرق بينما صلتهم لا تعدو المظاهر الجوفاء: من أزياء خاصَّة، وطُبُول رنَّانة، وأعلام خَفَّاقة، وحركات مُزريَة، وأصوات مُبْهَمَة يُسَمُّونَها ذِكْراً وليست من الذِّكْر في شيء، بحيث يَحْرصُون علي ذلك ويُهْمِلُون ما عَدَاه، فلا يُحِلُّونَ حلالاً ولا يُحَرِّمونَ حَرَاماً، ولا يُؤَدُّونَ لله تعالي حَقَّاً، ولا يَرْعَون له عهْداً، ولا يَحْفَظُونَ لِدِينه حُرْمَةً، إنَّ أُولَئِكُمْ لَيْسُوا في الواقع إلَّا طُلَّابَ قُوت، وهم دُخَلاءُ علي الطُّرُق، بل إنَّهم نَكْبَتُهَا الكُبْري ومُصِيبَتُهَا العُظْمي، الَّتي جَلَبَتْ عليها سُخْطَ الجُهَلاء بِها وهيَ البَرِيئَة المُطَهَّرة، وإنَّ أوَّلَ من يَتَبَرأ بين يدي الله من أولَئِكُم الأدْعِيَاءُ هم شيُوخُهُم الذين يزعمون الانتساب إليهم كما سَمِعْتَ آنِفاً، وتالله إنَّهُم لَمُنْكَر تَجِب إزَالَتَهُ علي من بَسَطَ اللهُ يَدَهُ بالقُوَّة.

بيعـــــة الطريق

وبيعة الطريق هي الخطوة الأولي فـي الـسير والـسلوك، وبهـا يكـون بـدءُ الارتباط الرُّوحي بـين التلميـذ والأسـتاذ، وشـرطها بالنـسبة إلـي المريـد: خُلُوص النَّية، وتمحيص الوِجْهَةِ لله تعالي، وكمال الثقـة فـيمن اختـاره مـن المشايخ لتربيته وتهذيبه، أما بالنسبة إلـي الـشيخ فـشرطه: أن يكـون قـد سلك من قبل علي يد شيخ عارف حـاذق ، وجاهـد نفـسه ونازلهـا، وكـان له من العلم والمعرفة ما يمكنه من وقاية مُريـده مـن الـشَّبَه وإرشـاده إلـي ما به تَصحُّ عقيدته، وتسلم عبادته وتستقيم مُعَامَلتـه، وأن يـشهد لـه حالـه بقربه من الله تعالي واتصاله، ومن ثم فمن الحُمـق وسُـخْف الـرَّاي أن يمـد المرء يده إلي كل من تمشيخ من غير بحث ولا استقصاء ولا معرفة.

وتتكون البيعة من أربعة أشياء:

أولها: الاستغفار والتوبـة، لتجتمـع لـه بهـا طهـارة البـاطن مـع طهـارة الظاهر بالوضوء، وتجديد عقد الإيمـان بقولـه: "رضـيت بـالله تعـالي ربـا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا.

ثانيها: عهـد الـسير والـسلوك وصـيغته: "الطاعـة تجمعنـا والمعـصية تفرقنا"، وهي كلمات قليلات كـان شـيخنا ﷺ يقـول عنهـا: "إن هـذا لـيس شرطا مأخوذا علي المُريـد فقـط، إنمـا هـو شـرط مـأخوذ علـي المُريـد والشيخ معا، بحيث إذا ما تخلَّف مُقْتَضاه من أحدهما، انْفَصَمَت الرَّابِطَة.

ثالثها: تلقين الأوراد والأذكار، وهي للمبتـدئين: الـصلاة علـى رسـول الله ﷺ بعد صلاة الصبح مائة مرة أو أكثر بالصيغة الكماليـة "اللَّهُـمَّ صَـلِّ وسَـلِّم وبَارِك علي سَيِّدِنَا مُحَمَّد وعلي آله عَدَدَ كَمَـالِ الله وكَمِـا يَلِيـقُ بِكَمَالِـه" وإذا كان الرسول ﷺ يقول: من صلَّ عليَّ مـن أمتـي صـلاة مخلـصاً مـن قلبـه، صَلَّ الله عليه بها عشر صلوات، ورَفَعَه بها عـشر درجـات، وكتـب لـه بهـا عشر حسنات، ومحا عنـه عـشر سـيِّئات، فمـا مبلـغ مـا يُـسَجَّل للـسالك المُحافِظ علي أوراده من خيرات في هـذه المائـة التـي تنطـوي كُـلُّ واحـدة

منها علي مضاعفات جَمَّة؟ ثم الاستغفار بعد صلاة العصر مائة مرة أو أكثر بصيغة "أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه"، وفي فضل الاستغفار يقولُ نَبِيُّنا ﷺ" من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب"ثم ذِكْر" لا إله إلا الله" ليلاً بعد الفراغ من مشاغل الدنيا وقُبَيل النوم لتكون خاتمة أعماله الاتصال القلبي بالله تعالي، والعدد في هذا الورد ثلاثمائة أو أكثر، ليدخل بذلك ضِمْنَ الذَاكِرين الله كثيرا، بشرط أن يكون ذكرهُ علي طهارة بِهِمَّة ونشاط، وحضور قلب مع الله، وخُشوع وخضوع، مع الملاحظة لِمَعْنَاها، وهو: "لا معبود بحق إلا الله" والمحافظة علي نطقها القرآني السَّلِيم، وفي فضل هذه الكلمة الشَّريفة يقول الرسول ﷺ: "لو أنَّ السموات السبع والأرَضِين السَّبع في كفَّة، ولا إله إلا الله في كفَّة مالت بِهِنَّ لا إله إلا الله أي رَجَحَ ثَوَابُهَا.

رابعها: الوَصِيَّة بالمحافظة علي الصلوات في مواقيتها ومع الجماعة حيث أمكن ذلك، وتمرين النفس علي استدامة الإحساس بالله والشعور برقابته الشَّاملة لحركات العبد وتصرُّفاته حيثما كان وأينما اتَّجَه، وأن يجعل الحق تعالي قِبْلَة قَلْبِه، وما إلي ذلك من وصايا غايتها توثيق الصِّلَة بين المريد وربِّه.

تلك يا أخي بيعة الطَّريق ينطُفْ الخير من جوانبها، ومبايعة الرسول ﷺ أصحابه تَسْنُدُهَا، وهذه أورادها العامة والخاصة لأبنائها استغنت بتزكية الرسول ﷺ لها عن كل تزكية، فليُقَلل المُنْكِرون من ثورتهم، هداهم الله.

علي أنه لا يفوتنا أن نقول إن بيعة الطَّريق كبيعة الإسلام بكلمة التَّوحيد، لا قيمة لها ولا ثمرة ما لم تُتْبَعْ بالتزام حقُوقَها، والحرص الكُلِّي علي مُقْتَضَياتُها، ومَثَلُهَا في ذلك مَثَلُ البذرة يغرسها صاحبها في الأرض، فإن تَعَهَّدها بعد ذلك بالسَّقْي، وصانها مما يعْدُو عليها، نمت وآتت أُكُلَهَا علي ما يشتهي، أمَّا إذا أهملها فإنَّها سُرْعَانَ ما تذبُل ثمَّ تَمُوت، فلا يظنَّنَّ مريد أنَّ مُجَرَّد أخْذِه العهد، واعتقاده في أهل الله يكفيه، ويكْفُل له إدراك

ما يرجوه، كلاَّ، فإن هذا الظَنَّ جهلٌ وخَطأ، وليعلم أن بينه وبين آماله جهاداً متواصلاً لنفسه وشيطانه وهواه وعاداته، فإذا تهاون في ذلك كان الفشلُ نصيبه، فاعتصم أيَّها الأخ بحبل وصلِك واستمسك بعهدك، واستعن علي جلاء قلبك واستنارته بالإكثار من ذكر الله، ذكراً مصحوباً بالشوق والحضور والهمَّة، ولا تتسامح مع نفسك فيما وظَّفْتَه عليها من الأوراد فتتَهاون وتُسَوِّفْ، فإنَّ التَسْويف ولو مرة كثيرا ما يكون مبدأ الحرمان والقطيعة، ومن آنست منه استعداداً للخير وأهليَّة للسَّير – فادعُهُ إليه ورغِّبْهُ فيه. ليكون لك أجرٌ يُمَاثِلُ أجر من تسبَّبت له في الخير واعلم أنَّك ستَجد من بعض المفتونين إنكاراً عليك فلا يُهِمَّنَّك أمره، وسر في طريقك واذكر ربك في أي وضع وعلى أي حال فإنَّ الدِّين لم يُقَيِّدنا في ذكر الله بكيفية خاصة بل أمرنا الله تعالى أن نذكره قياما وقعودا وعلى جنوبنا: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ ورغَّبنا في الذِّكْر سِرَاً وجَهْرَاً كما في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بى وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملإ خير منه وبديهي أن الذكر في الملإ لا يكون إلا جَهْرَاً غاية ما في الأمر أن يراعى التوسط في الجهر لما ورد في السنة من التنبيه إلى ذلك كذلك لا حرج عليك أن تذكر ربك مجتمعا مع إخوانك أو منفردا بنفسك أو أن تذكر بالاسم المفرد كما تذكر بالجملة التامة في لفظها ففي الحديث: (مَا مِنْ قَوم اجتَمَعُوا يَذْكُرون الله إلا نَادَاهُم مُنَاد مِنَ السَّمَاء: قُومُوا مَغْفُور لَكُم قَدْ بُدِّلَت سَيِّئَاتِكُم حَسَنَات) وفِى الآيَة الكَرِيمَة: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ كما أنَّ فِي السُنَّة الصَحِيحَة: "لا تَقُوم السَّاعة حتَّي لا يُقَال في الأرض :الله الله"، وكان بلال يغالب آلامه وهو يعذب ويكرر: (أحَدٌ أحَدْ).

والحمد لله أولاً وآخراً ونَسْأله سُبْحَانه أن يَجْعَلَنَا مِن الَّذِين يَسْتَمِعُون القَوْلَ فَيَتَّبِعُون أحْسَنه وصلَّ الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى أله وصحبه وسلم.